التشاكل الصوتي القرآني وأثره في تكثيف الدلالات

د . سعاد كريم خشيف
مدرسة الدراسات اللغوية في كلية التربية
جامعة ذي قار
قسم اللغة العربية

التشاكل الصوتي القرآني وأثره في تكثيف الدلالات .

ان التعبيرالقراني الكريم لايستعمل الالفاظ استعمالا اعتباطيا ،وانما يختار الالفاظ التي تكون امس صلة بالمعنى. ومن الاختيار المقصود فيه اختيار الفاظ ذات مقاطع صوتية مشتركة داخل التركيب المتلازم من حيث المعنى ،وهو ما سميته (التشاكل الصوتي) . والتشاكل هو ((ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته)) [١].

والتشاكل المقصود به هنا اعادة المقاطع الصوتية وارجاعها فتتماثل مع المقاطع الصوتية السابقة لها في التعبير ،سواء اوقع هذا التشاكل والاعادة بين لفظين منفردين ام بين تركيبين . وقد سماه بعضهم ((التعطف)) [٢]او ((المماثلة))[٣] وقد اختير اسم التشاكل هنا دون غيره لانه اكثر تناسبا مع الموضوع .. وقد لوحظ من خلال الوقوف عند عدد من ايات القران الكريم الواردة على هذا الاسلوب ان لهذا التشاكل اثرا في اظهار الدلالات العميقة المستشفة من التعابير ، أي ان لهذا التشاكل الصوتي اثرا في تكثيف الدلالات وتعميقها في الاذهان، فضلا عن الدلالات السطحية الاولى ،اذ قد يكون للتعبير الواحد دلالات اولى سطحية واخرى عميقة ،وباجتماع الدلالات تتكثف المعاني وتتعمق، ثم تترسخ في الاذهان وكان من اسباب تكثفها وعمقها هذا التشاكل الصوتي ..

ويمكن تقسيم التشاكلات الصوتية في التعبير القرآني على قسمين :

١- التشاكل الصوتي الافرادي . ٢- التشاكل الصوتي التركيبي .

اولا :- التشاكل الصوتي الافرادي .

وهو التشاكل الواقع بين لفظ واخر داخل التعبير الواحد ،وهو إما ان يرد على سبيل الجزاء او على غير ذلك السبيل .فمما ورد على سبيل الجزاء قوله تعالى : (فيسخرون منهم سخر الله منهم)التوبة ٧٩ . فقد تماثلت السخريتان وتشاكلتا من حيث المادة اللغوية واختلفتا من حيث الصيغة ثم المعنى .فالسخرية في اللغة تعني الهزء بالشيء[٤] وهي صفة ذم ، اذ المستهزء يعاب ويذم على ذلك.

وقد اسند التعبير (السخرية)الى العباد المنافقين مرة ،والى المعبود سبحانه مرة اخرى . فورد هذا الاسناد للاله سبحانه على سبيل ((المشاكلة لفعلهم ، والمعنى ان الله عاملهم معاملة تشبه سخرية الساخر ،على طريقة التمثيل))[٥].اي ان جزاء سخرية المنافقين سخرية من الاله الجبار ،وهي سخرية انطوت تحت تشاكلها الصوتي لسخرية اولئك دلالات التهويل [٦]، والرد الحاسم من الله تعالى الذي يجبههم به ويردعهم عن فعلهم المذموم ،وهو اسلوب تعارف عليه العرب في تعابيرهم ،اذ يكرر العرب الكلمة على سبيل((التغليظ والتخويف))[٧] وقد عطف عليه تهويل اخر وتفخيم دل عليه التنوين[١] في قوله تعالى (ولهم عذاب اليم)التوبة ٧٩ . وفضلا عما انطوى عليه هذا التشاكل الصوتي من دلالات الجزاء على الفعل ،والتهويل والتغليظ والتخويف ،والرد الحاسم والردع ،فان فيه حسنا في النسق الصوتي للتعبير ، اذ كثيرا ما يعمل التجنيس الصوتي على زيادة تناسق الالفاظ وانسجامها في النص القراني .ونحوه قوله عظم شانه (ومكروا ومكرالله والله خير الماكرين) ال عمران ٥٤ فقد تشاكل المكران من جهة الوحدات الصوتية وتماثلت الالفاظ المفردة داخل تركيب الاية غير ان المكرين اختلفا في الدلالة وفي الاسناد ،اذ المكر الالهي ليس كالمكرالبشري .فالمكر في اللغة [٢] يعني الخديعة والاحتيال وصرف غيرك بحيلة ،وقيل هو((التدبير المحكم ...وهو مذموم ان تحرى به الفاعل الشر والقبيح ،كمكر هؤلاء اليهود ،ومحمود ان تحرى به الفاعل الخير والجميل ،ومنه (مكر الله)حيث نجا رسوله منهم))[٣] .فاسناد المكر لله سبحانه جيء به على سبيل المشاكلة في اللفظ والجزاء ورد كيد اليهود من جهة المعنى ،اذ ((تجوز بلفظ المكر عن عقوبة

١- المطول ٦٤٨ .
٢- تحرير التحبير ٢٥٩.
٣- الايضاح ٣٤٨/٢.
٤- اللسان (سخر).
٥- التحرير والتنوير ٢٧٥/١٠.
٦- في ظلال القران ١٦٨١/٣.
٧- معاني القران للفراء ٢٨٧/٣.

،لانه سببها))٤. فسمي جزاء مكر اليهود مكرا ،لتحقيق الدلالة على ان وبال المكر الذي اضمروه للرسول (ص) والمسلمين راجع عليهم ومختص بهم ٥. ويلحظ في هذا التشاكل والتماثل بالمكر فضلا عن دلالة الجزاء دلالات ،منها قوة التدبير وشدته،لانه مكر من الله وتدبير منه سبحانه، ومنها السخرية٦ من مكرهم وكيدهم ،اذ كان الذي يوجهه هو تدبير الله تعالى ،فاين هي منه واين مكرهم من تدبيره سبحانه ؟

ومن هذالقبيل قوله تعالى ((فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم))البقرة ١٩٤ .فالاعتداء يعني الظلم او المجاوزة على الحد بالقول او بالفعل او غيرهما ٧ ،فهو على هذا صفة ذميمة وقد جاء الاعتداء الاول عليه .اما الاعتداء الثاني فجاء على سبيل المجازاة والعدل لاالظلم والتجاوز .والتعبير اطلق على القتال عدوانا مع انه حق وصواب ،لان ذلك القتل جزاء العدوان ،فصح اطلاق اسم العدوان عليه ٨.وقد وقع الجزاء على سبيل تكرار اللفظ وتشاكل الوحدات الصوتية وتماثلها ،لغرض الاشارة الى ان المجازاة كانت ((بما يستحق على طريق العدل ،الا انه استعير للثاني لفظ الاعتداء ،لتاكيد الدلالة على المساواة في المقدار ،فجاء على مزاوجة الكلام لحسن البيان))٩ فمع ما في هذا التشاكل من دلالات الجزاء والمساواة المؤكدة وحسن البيان ،فان فيه خفة في نطق المتماثلين دون المختلفين ،فلو قيل: فمن اعتدى عليكم فعاقبوه او جازوه او عاملوه بمثل ذلك لم نجد ذلك الحسن الجرسي الذي لحظناه في التعبير ،أي ان هذا التشاكل قد احدث نوعا من الانسجام الصوتي والتناغم المستمدين من تماثل الالفاظ،وشكّل ضربا من الايقاع له اثر بايحاء الالفاظ بدلالات سطحية واخرى عميقة .

ونحوه قوله عظم شانه على لسان المنافقين الذين يبطنون الكفر بقولهم:(انما نحن مستهزئون)البقرة ١٤فردّ الله تعالى عليهم بقوله : (الله يستهزىء بهم)البقرة ١٥ ،بهذا التشاكل الصوتي في اللفظ مع قولتهم ،وهو من باب الجزاء على قصدهم الاستهزاء وفعلهم لهم . وقد اسند التعبير الاستهزاء الثاني الى الله تعالى ((مجازا ...لان الاستهزاء الحقيقي هو ما يقصد به الى عيب المستهزأ به والازدراء عليه واذا تضمنت التخطئة والتجهيل والتبكيت هذا المعنى جاز ان يجرى عليه اسم الاستهزاء))١ .فهو استهزاء من الله تعالى وقد دلة بهذا الاسناد على ((عظم مكانة المؤمنين))٢وعلى التحقير للمستهزئين والهوان بهم ٣وهو استهزاء ليس كاستهزائهم وانما هو استهزاء عظيم لصدوره من عظيم ومتنوع ، اذ ورد بصيغة المضارع التي تشعر بالحدوث والتجدد ،فهو ابلغ من استهزائهم الذي ورد معبرا عنه بالاسم ،وهو اشد واقوى باسناده الى الله تعالى .

وفضلا عن ذلك فلا يغفل مافي هذا التشاكل من خفة على اللسان حين النطق ،اكثر مما لو خولف بين الفعل والجزاء .

ونحو هذا قوله تعالى (نسوا الله فنسيهم)التوبة ٦٧ ،فشوكل بين النسيانين ،ولم يردا في التعبير على حقيقة النسيان الذي هو من الصفات البشرية الطارئة ،فالنسيان الاول الصادر من العباد ((مجاز عن الترك وهو كناية عن ترك الطاعة))٤ او اغفال ذكر الله تعالى ٥.واما النسيان المسند اليه سبحانه فيراد به انه((تركهم من رحمته وفضله))٦.وقد ورد النسيانان على سبيل التشاكل والتجانس بين اللفظين وفي ذلك من الدلالة على عظم منع لطف الله تعالى وفضله عنهم، اذ تركهم ترك المنسي فجيء بصفة بشرية معهودة عند جنس ابناء ادم واسندها اليه سبحانه ،تعظيما للترك وتهويلا له في نفوسهم ،بان يكون جزاء فعل الترك منهم تركا ومنعا منه سبحانه .

ومن ذلك ايضا قوله تعالى : (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم)التوبة ١٢٧ فالجزاء لفعلهم وضع باللفظ نفسه المعبر عن فعلتهم وهو (الصرف)اذ ((جونس الانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير ،والاصل فيه واحد وهو الذهاب عن الشيء ،اما هم فذهبوا عن الذكر واما قلوبهم فذهب عنها الخير))٧ ويلحظ في هذا التشاكل للفظتي الصرف دلالة مزدوجة الاولى :التلاؤم الصوتي والانسجام في الايقاع والجرس ،والاخرى :توكيد المعاني وتحقيقها فتكون اشد وقعا في نفس السامع واكثف دلالة في ذهن المتلقي .

ان ما مر ذكره من التعابير القرانية كان التشاكل الصوتي فيها واردا على سبيل الجزاء . اما ما ورد على غير تلك السبيل ،فكقوله تعالى على لسان عيسى (عليه السلام)مبرئا ساحته :(تعلم ما في نفسي ولااعلم ما في نفسك)المائدة ١١٦.اذ ورد التعبير على سبيل الازدواج والمشاكلة في لفظة (النفس).ومعلوم ان الباري سبحانه (ليس كمثله شيء)فجيء باللفظ على هذه السبيل ،لغرض توكيد براءة عيسى (عليه السلام)،ونفي ما اتهم به من القول للناس باتخاذه وامه الهين من دون الله سبحانه وتعالى ،فصدور هذا القول منتف بانتفاء العلم الالهي به.ونحو هذا قوله سبحانه وتعالى (فسوف ياتي الله بقوم يحبهم ويحبونه)المائدة ٥٤، فقد وقع التشاكل بين قوله (يحبهم)و(يحبونه)ومحبة العباد لله تعني ((طاعته وابتغاء مرضاته وان لايفعلوا ما يوجب سخطه

١- تفسير ابي السعود ٢/٤٣١.
٢- اللسان (مكر).
٣- صفوة البيان ٨٢ .
٤- الايضاح ١٥٦.
٥- النكت في اعجاز القران ٩١.
٦- في ظلال القران ٣/٤٠٣.
٧- اللسان(عدا).
٨- التفسير الكبير ٥/١٤٦-١٤٨.
٩- النكت في اعجاز القران ٩١.
٢

١- امالي المرتضى ١٤٤/٢ ،وينظر اللسان(هزأ).
٢- تاملات في ايات القران ٤٣/١.
٣- التفسير الكبير ٨٢/٢.
٤- روح المعاني ١٣٣/١٠.
٥- الكشاف ٢٠٠/٢.
٦- الكشاف٢٠٠/٢.
٧- النكت في اعجاز القران ٩٢. ٣

وعقابه ،ومحبة الله لعباده ان يثيبهم احسن الثواب على طاعتهم ويعظمهم ويثني عليهم ويرضى عنهم))١.فجاء التعبير مشاكلا بين اللفظتين ،مماثلا لاصواتهما وهو تشاكل انطوت تحته دلالة اكثف من الدلالة السطحية التي تمركزت في حسن ثوابه لهم ،وهي دلالة تخصيصهم لمحبة الله تعالى ،اذ لايقع الحب الا على الخواص وتعظيم المحبة ،لانها صادرة منه سبحانه ،فضلا عن انها محبة متنوعة الاشكال ،اذ دلت صيغة المضارعة على تجددها وتنوعها ،اذ هي لاتسير على سبيل واحدة وانما تتعدد سبل محبته لعباده ،كما ان سبل محبةالعباد له سبحانه متنوعة. ونحو هذا قوله سبحانه في وصف اولئك الذين امنوا وعملوا الصالحات(رضي الله عنهم ورضواعنه)المجادلة ٢٢.

ثانيا التشاكل الصوتي التركيبي :

وهو ما لايقع بين لفظتين مفردتين وانما هو يقع بين تركيبين اذ تتكرر الوحدات الصوتية وتتشاكل داخل التركيب وفي اطار الالفاظ المفردة المكونة لها، فمن ذلك قوله تعالى على لسان اخوة يوسف (عليه السلام) في مخاطبته، اذ (قالوا أءنك لأنت يوسف) يوسف ٩٠ ،فقال عليه السلام مجيبا لهم (انا يوسف)يوسف ٩٠،باعادة التعبير الذي سئل به فاظهريوسف اسمه وترك الضمير المعوض عنه، فلم يقل (أنا هو)،وما كان ذلك الا((تعظيما لما وقع به من ظلم اخوته))٢ وهي طريقة العرب في تعظيم الامور وترسيخ اثرها في النفس .فكرر يوسف (عليه السلام)في جوابه تعبير اخوته ،لانه اراد ان يعظم في نفوسهم ما لحق به من اذى نتيجة فعلتهم ،ويذكرهم بما كادوه له .فالضمير انا في جوابه (عليه السلام)هو الضمير (انت) في سؤالهم ٣،أي ان جوابه وقع متماثلا صوتيا مع تركيب سؤالهم ،وهو تماثل حاصل باللفظ والمعنى،وقد ادى هذا التشاكل الصوتي وظيفة دلالية عميقة، هي تعظيم المرارة والاذى اللاحقين في نفس يوسف (عليه السلام)،فضلا عن جمالية النسق الكلامي نتيجة هذا التشاكل الصوتي التركيبي. ومن هذا اللون قوله جل شانه على لسان الكافرين في خطابهم الرسل (عليم السلام)اذ قالوا : (ان انتم الا بشر مثلنا)ابراهيم ١٠ ،فقالت لهم رسلهم (ان نحن الا بشر مثلكم)ابراهيم ١١.فقد اعاد الرسل كلام الكافرين وماثلوا قولتهم ،اذ لم ينكر الرسل بشريتهم بل اقروها وسلموا بها،فاعادوا عليهم كلامهم ،لان ((من شان من ادعى عليه خصمه الخلاف في امر لايخالف فيه الا ان يعيد كلام الخصم على وجهه))٤.فجاءت هذه الاعادة وهذا التشاكل دالين على توكيد الحكم وتقويته بعد ان كان المخاطب يجهل وينكر .وهو تشاكل اعادة وتماثل متفق من حيث اللفظ والمعنى كسابقه. واما قوله تعالى مصورا المجادلة بين نبي الله ابراهيم (عليه السلام)والنمرود وما فيها من مغالطة هذا الطاغي ،(اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال انا احيي واميت)البقرة ٢٥٨ ،فقد وقع جواب النمرود مماثلا لقوله عليه السلام تماثل تركيب دون المعنى .ويلحظ ان في هذه الاعادة الصوتية للمفردات وتشاكلها دلالة على شدة التبجح في الجواب،وعظم اللجاج في المجادلة وبون التناقض الاعتقادي بينهما .

١- الكشاف ٦٢١/١.
٢- مجمع البيان ٢٦١/٥.
٣- البرهان في علوم القران ٤٦/٤.
٤- التبيان لابن الزملكاني ٦٧.

ونستخلص القول من كل ما ذكر ،بان التشاكل الذي يعني تكرار الوحدات الصوتية المؤلفة للالفاظ المفردة او التراكيب، يمكن عده ظاهرة اسلوبية في التعبير القراني .والتشاكل الصوتي القراني ياتي على صورتين ،احداهما: التشاكل اللفظي الافرادي ،والاخرى التشاكل التركيبي الشمولي .وان التشاكل الصوتي الافرادي يرد بطريقتين ،اما على سبيل الجزاء والمعاملة بالمثل او على غير تلك السبيل.فأما ما كان على سبيل الجزاء فاكثر ما وقع باسناد الاحداث الى من لايصلح له هذا الاسناد كاسناد المكر ،والاستهزاء والسخرية والنسيان الى الله تعالى ،وهذه من الصفات التي لاتليق به سبحانه وتعالى ،وانما جيء بها مسندة اليه تماثلا وتشاكلا في الالفاظ مع اختلاف المعاني وجيء بهذا الاسناد المخالف للاصل ،لان تعبير الجزاء يكون به اشد وقعا واكثر قوة من الاول ،عن طريق اعادة الالفاظ وتماثلها في الوحدات الصوتية .

ان التشاكل الصوتي القراني الذي يشكل ظاهرة اسلوبية له اثر في ترسيخ المعاني وتاكيد تحققها ،وتعميق الدلالة وتكثيفها فيها ،اذ يقود هذا التشاكل الصوتي الى دلالات اخرى اعمق مما اوحاه المعنى السطحي الاول للتعبير ،فضلا عما يشكله هذا التشاكل من جرس موسيقي ملحوظ خلال وروده في الانساق القرانية ،اذ اكسب التعابير طابعا جماليا في تنغيمها الصوتي ،فضلا عن خفة النطق للمتماثلين دون المختلفين ،فضلا عن توظيف الاساليب المجازية فيها .

المصادر والمراجع /

- القران الكريم .

- ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم – ابو السعود بن محمد العبادي –دار الفكر (د.ت).
- امالي المرتضى – غررالفوائد ودرر القلائد – علي بن الحسين الموسوي العلوي الشريف المرتضى –تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم- ط ١- دار احياء الكتب العربية –مصر ١٣٧٣- ١٩٥٤م .
- الايضاح في علوم البلاغة – المعاني والبيان والبديع (مختصر تلخيص المفتاح)- جلال الدين الخطيب القزويني – مطبعة السنة المحمدية – القاهرة (د.ت).
- البرهان في علوم القران –بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي –تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم –ط ١- دار احياء الكتب العربية مصر ١٣٧٦/١٩٥٧م.
- تاملات في ايات القران –ابراهيم النعمة –ط ١- مطبعة الزهراء الحديثة –الموصل ١٤٠٥ /١٩٨٥م .
- التبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القران – ابن الزملكاني تحقيق د. احمد مطلوب و د .خديجة الحديثي –ط ١- مطبعة العاني – بغداد ١٣٨٣ /١٩٦٤م.
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القران – ابن ابي الاصبع المصري – تحقيق د .حنفي محمد شرف –مطابع شركة الاعلانات الشرقية –القاهرة ١٣٦٣ / ١٩٦٣م.
- التفسير الكبير –فخر الدين الرازي –ط١- المطبعة البهية مصر ١٣٥٧ / ١٩٣٨م.
- روح المعاني في تفسير القران العظيم والسبع المثاني – ابو الفضل شهاب الدين الالوسي – دار احياء التراث العربي – بيروت (د.ت).
- صفوة البيان لمعاني القران –حسنين محمد مخلوف – ط٣ – القاهرة ١٣٧٥ /١٩٥٥م.
- الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز – يحيى بن حمزة العلوي – مطبعة المقتطف –مصر ١٣٣٣ / ١٩١٤م .
- في ظلال القران سيد قطب – ط١١- دار الشروق –بيروت –القاهرة – ١٤٠٥ / ١٩٨٥م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التاويل – جار الله الزمخشري – طهران (د.ت)
- لسان العرب المحيط ابن منظور – إعداد وتصنيف يوسف خياط و نديم مرعشالي –قدم له عبد الله العلايلي –دار لسان العرب بيروت (د.ت).
- مجمع البيان في تفسير القران – الفضل بن الحسين الطبرسي – صححه ابو الحسن الشعراني – طهران ١٣٧٣.
- المطول - شرح تلخيص مفتاح العلوم – سعد الدين التفتازاني –تحقيق د.عبد الحميد هنداوي – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٢٤.
- معاني القران – ابو زكريا يحيى ابن زياد الفراء – تحقيق احمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار – ط٣ –دار الكتب المصرية – بيروت ١٤٠٣/١٩٨٣م .
- النكت في اعجاز القران –ابو الحسن علي بن عيسى الرماني –ضمن كتاب ثلاث رسائل في اعجاز القران- تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام –دار المصارف –مصر(د.ت).

Related Articles

http://thiqaruni.org/arab4/21.pdf
http://thiqaruni.org/arab4/29.pdf
http://thiqaruni.org/arab4/19.pdf
http://thiqaruni.org/arab4/20.pdf
http://thiqaruni.org/arabic/29.pdf
http://thiqaruni.org/arabic/30.pdf
http://thiqaruni.org/arabic/67.pdf